ممنون الفيلسوف

او الحكمة الانسانية

بقلم فولتير

ترجمة الأستاذ عبد اللطيف النشار

آلى ممنون على نفسه : أن يصير فيلسوفاً عظيما فى يوم من الأيام . وقليل من الناس هم الذين لم يعتزموا فى وقت ما مثل هذا العزم الرائع .

قال ممنون فى نفسه : إن بلوغ الكمال فى الفلسفة معناه بلوغ الكمال فى السعادة . وليس على أن أعمل لكى أصير فيلسوفاً إلا التجرد من كل الشهوات ؛ ولا شىء أسهل من ذلك كما يعرف كل إنسان . وسأبدأ بمقاومة الحب فإذا رأيت امرأة جميلة أقول فى نفسى إن هذه الخدود ستدركها الغضون ، وإن هذه العيون ستصبح طعاماً للدود ، وإن هذا الرأس سيصبح جمجمة منخوبة . فإذا ما تصورت خيالها وهى كذلك فإن جمال وجهها لن يؤثر فى نفسى

هـذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنى سألزم القصد والاعتدال ، فإذا ما وجدت من نفسى إغراء على شرب النبيذ الشهى أو الطعام المرىء أو غيره مما يفتتن به المجتمع ذكرتها بآلام الرأس من التغالى فى الشراب ، وبآلام البطن من التغالى فى الطعام ، وحذرتها من فقدان العقل والصحة . ومتى تجنبت التغالى ظلت صحتى موفورة وظل ذهنى نقياً وضاءً

وقال ممنون : كذلك يجب ألا أفكر كثيراً فى الثروة لأن رغائبى معتدلة وما عندى من المال يكفى لأن أعيش مستقلا

ويتضمن هذا الجزء الذى صدر أخيراً تعليقات المستشرق نيكلسن على الجزء الأول والثانى من الكتاب ، أما الاجزاء التى ظهرت من قبل فهى :

١ — نص الكتابين الأول والثانى .
٢ — ترجمة الكتابين الأول والثانى إلى الانجليزية .
٣ — نص الكتابين الثالث والرابع
٤ — ترجمة الكتابين الثالث والرابع إلى الانجليزية .
٥ — نص الكتابين الخامس والسادس .
٦ — ترجمتهما إلى الانجليزية .

لجنة احياء ذكرى المنفلوطى :

ناشدت لجنة إحياء ذكرى المنفلوطى أساطين الأدب وأعلام البيان فى الشرق العربى على صفحات الجرائد والمجلات أن يتفضلوا بالكتابة عن أدب الفقيد الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاما على وفاته وتمهيداً لإحياء ذكراه فى ١٦ يوليو القادم ، وكان ذلك فى أول مايو غير أنه والأسف يحز فى نفوسنا لم يتحرك قلم لأداء هذا الغرض النبيل كما أنه لم تصل السكرتارية حتى الآن أية رسالة فى هذا الموضوع ، ولقد قر الرأى — بناء على اقتراح الاستاذ توفيق حبيب — على وضع كتاب عن أدب المنفلوطى لتخليد ذكراه ، تتبارى فيه جهابذة الأدباء فى جميع أقطار الشرق العربى ، وذلك بأن يختار كل من حضرات الأدباء والشعراء ما يروقه من الموضوعات فيكتب فيها بحثاً ضافياً يرسله إلى السكرتارية قبل آخر يونيو الحالى حتى اذا تكامل لديها ما يكفى لمادة الكتاب قامت بطبعه وأنفقت ثمنه فى تشييد قبر يتفق ومكانة المنفلوطى العالمية . واللجنة تتوجه بالرجاء الشديد إلى حضرات الكتاب والأدباء والشعراء ألا يضنوا بمجهوداتهم وأن يحققوا ما تعلقه عليهم من آمال .

سكرتير اللجنة — متولى حسنين عقيل

وهذه أكبر نعمة فى الوجود . ولن أجد ضرورة لحضور حفلات الراقصة فى القصر . ولن أحسد إنساناً ولن يحسدنى إنسان . وهذا كله سهل . ولى أصدقاء سأحتفظ بهم ولم ينشب بينى وبينهم خلاف فلم أعترض أحدهم فى قول أو فعل وسيسلكون معي هذا المسلك . ولا صعوبة فى ذلك ...

وهكذا وضع ممنون خطة لفلسفته ثم أطل من النافذة فرأى امرأتين تسيران تحت الأشجار ، وكانت احداهما كبيرة تبدو عليها علائم الرضى ، والثانية صغيرة جميلة . ولكن علائم التذمر بادية عليها . وكانت تبكى وتتنهد ، فتأثر فيلسوفنا من رؤيتها - على أنه من المحقق أن جمالها لم يكن له دخل فى هذا التأثير - (لأنه آلى على نفسه ألا يزعجه شيء من هذا القبيل) بل كان تأثره بسبب الحزن الذى رآها فيه ، فنزل من المنزل ليعزى تلك السيدة بفلسفته ، فروت له الجميلة بأبسط اللهجات وأشدها تأثيراً ما تألم منه . وشكت له من عم تتخيل وجوده يريد أن يحرمها ثروة تنوهما . وقالت : يظهر أنك رجل حكيم وإنك لتنقذنى من متاعبي إذا أتيت إلى منزلى ودرست قضيتى وأشرت علىّ بالرأى الذى ترآه

فلم يتردد ممنون فى اتباعها لدرس قضيتها دراسة فلسفية وليشير عليها بالرأى الراجح

وقادته المرأة الجميلة إلى حجرة تفوح منها روائح العطر وأجلسته على نمرقة متسعة وجلست أمامه جلسة المتحدث إلى من يحدثه وقد تقاربت أقدامهما . وكان أحدهما يقص قصته والآخر يصغى اليه أتم الاصغاء.

وكانت السيدة تتكلم وهى ناظرة إلى الأرض والدموع تنحدر من عينيها بين حين وحين . ثم ترفع بصرها لتنظر إلى وجه الحكيم ممنون . وكان الحديث فى منتهى الرقة . وقد زاد عطف الفيلسوف وسر بأن يكون فى وسعه تخفيف الألم عن مخلوقة بهذه الدرجة من الجمال ، وهذه الدرجة من التعاسة . ولما اشتدت حرارة الحديث جلس المتحادثان المتقابلان جنباً لجنب ، وتدانى الساقان ، وكان ممنون يمنحها من نصحه الرقيق ومن عطفه حتى صار كلاهما لا يستطيع الكلام عن الموضوع الذى كانا يتناولانه . وحتى صار كل منهما لا يدرى أين هو

وفى مثل هذا الحين من الذى يظن أنه يأتى إليهما غير العم الذى كانت تشكوه ؟ لقد جاء مسلحاً ، وكانت أولى كلماته أنه سيضحى بالحكيم ممنون ، وبنت أخيه ، وقد أسرعت الأخيرة ففرت ، وهى موقنة بأن صاحبها سينجو إذا اشترى حياته بكل ما معه من المال وقد اضطر إلى بذل ما معه ليفتدى نفسه وقد كان الناس فى ذلك العهد سعداء لأنهم يستطيعون النجاة ، بسهولة بمثل هذه الوسيلة . وكانت أمريكا لما تستكشف بعد ، وكان السيدات التاعسات أقل تعرضاً للخطر مما هن عليه الآن

وخرج ممنون من المنزل متعثراً بأذيال الخجل فذهب إلى منزله . وهناك وجد دعوة إلى تناول العشاء من بعض أصدقائه الخلصاء ، فقال فى نفسه اذا بقيت وحدى فى المنزل فان ذهنى سيظل مشغولا بالتفكير فى حادثة اليوم ، ولا أستطيع أن أتناول لقمة . وربما جلب إلى ذلك مرضاً ، ولذلك سأذهب إلى أصدقائى . وسأنسى فى مجلسهم ما ارتكبته اليوم من الحماقة

وذهب اليهم فوجدوا عليه بعض علائم القلق وحثوه على أن يشرب ليصرف عن نفسه الهم فقال فى نفسه : « إن قليلا من النبيذ لا يتنافى مع الاعتدال » وهكذا شرب ممنون حتى سكر .

ودعى إلى اللعب بالأوراق فقال إن اللعب بها مدة يسيرة مع صديق لا يتنافى مع الاعتدال . وهذا اللعب من خير الوسائل لتمضية الوقت .

ولعب حتى خسر كل ما معه وهو أربعة أضعاف ما كان مستعداً ليلعب به .

ولسبب ما نشأ خلاف بين اللاعبين واشتد الخلاف فصار مشاجرة ، فرماه بعض أصدقائه بصندوق صغير جرح رأسه وإحدى عينيه ، فحمل الفيلسوف ممنون إلى منزله سكران مفقود إحدى العينين .

نام . ولما أبل بعض الابلال أرسل إلى مدير المصرف الذى يودع فيه أمواله يطلب ما يفى به ديونه فى اللعب ، فعاد الخادم وأخبره بأن المصرف أفلس بالتدليس وأن مئات من الأسر قد أصبحت فى أشد حالات البؤس والفاقة ، فكاد يذهل ممنون ، وذهب إلى البلاط لرفع قضيته ، وهناك وجد عدداً من السيدات وآخر من القسس ورأته إحدى صديقاته فصاحت : « مالك يامسيو ممنون ! كيف فقدت إحدى عينيك؟ » ثم جرت دون أن تنتظر الجواب ، فانتظر ممنون حتى الساعة

التى يستطيع فيها الارتماء على قدمى الملك لبث شكواه .

وأخيراً جاءت تلك الساعة فقدم إليه عريضته واستقبله الملك إستقبالا حسناً . ولكن كبير الأمناء صاح به بعد ذهاب الملك : « كيف تقدم عريضتك إلى الملك مباشرة دون تقديمها إلىّ ؟ وكيف تطلب المقاضاة على تفليسة شريفة ضد ابن أخت وصيفة زوجتى ؟ إن هذا التصرف يدل على أنك لا تحرص على عينك الأخرى »

فعند ما سمع ممنون ذلك — وكان إلى الآن عازماً على هجر النساء والتقليل من الطعام والشراب وترك المشاجرة — عزم أيضاً على الكف عن دخول البلاط وعن طرق سبيل القضاء لأن هذا السبيل ألحق به الاهانة وحرمه الانصاف

وتصدع قلبه من الحزن فعاد إلى المنزل يائساً . ولكنه وجد المحضرين يشرعون فى بيع أثاثه وفاء لديون دائنيه فوقع على الأرض فى حالة تشبه الاغماء . ورأى فى الطريق السيدة التى قابلها فى الصباح مع عمها فضحكا منه ضحكة عالية .

وفى المساء صنع ممنون لنفسه وسادة من القش ونام بجانب الحائط ، فرأى فى الحلم تلك الروح الفلسفية التى كان يتعشقها وهى روح من النور لها ستة أجنحة جميلة . ولكن ليس لها رأس ولا قدمان وهى لا تشبه شيئاً مما سبقت له رؤيته ، فقال : « من أنت أيتها الروح ؟ »

قالت : « أنا روحك » فقال : « ردى إلىّ عينى وصحتى وثروتى وعقلى »

ثم قص عليها قصة يومه فقالت : « هذه حوادث لا تحدث فى الموطن الذى أنا فيه » .

قال : « وأين ذلك الموطن ؟ » فأجابته : « هو على بعد خمسمائة مليون فرسخ من الشمس ، وهو موطن جميل . وليس هناك شياطين تغرى ولا أصدقاء يحالسون المرء ليسلبوا ماله ، وليس هناك من يخرقون عيون الناس ، ولا إفلاس بالتدليس ، ولا أمناء ملوك يسخرون ممن يطلب العدالة ؛ وليست تخدعنا النساء لأنه لا نساء بيننا ، وليس عندنا طعام ولا شراب ، وليس عندنا تفليس لأنه لا ذهب عندنا ولا فضة ، وليس لنا عيون تقلع لأن أجسادنا نورانية ليست كأجسادكم . وليس عندنا بلاط لأن الكل متساوون » .

قال ممنون الفيلسوف : « اذا لم يكن عندكم نساء ولا طعام ولا شراب فكيف تقضون أوقاتكم ؟ » .

قالت : « نحن موكول إلينا مراقبة دنياكم وقد جئت إليك لأعزيك » .

قال ممنون : « ولكن لماذا لم تأتى بالأمس لتمنعينى من اقتراف ما اقترفت ؟ » .

فقالت : « لقد كنت مع أخيك الأكبر « حسن » الذى كان فى بؤس أشد من بؤسك لأن سلطان الهند أمر بقلع عينيه وهو الآن فى السجن ويداه ورجلاه فى السلاسل والاغلال »

قال : « وهل من العدل أن يكون اثنان من أسرة واحدة أحدهما أعور والثانى أعمى ، وأحدهما ينام على وسادة من قش والآخر فى السجن ؟ » .

فقالت الروح : « إن حظك سيتغير سريعاً . نعم إن عينك لن تشفى ولكنك ستصير سعيداً إذا نزعت عن فكرك الرغبة فى أن تكون فيلسوفا كاملا »

قال ممنون : « إذن فذلك مستحيل ! » فقالت الروح : « إنه لمن المستحيل أن يصير المرء كامل العقل كامل السعادة ، فنحن أنفسنا بعداء عن الكمال مع أننا أرواح . وسيأتى عالم غير هذا العالم يكون ذلك كله ممكناً فيه . ولكن بيننا وبين هذا العالم مائة ألف مليون من العوالم يتدرج فيها المرء إلى ذلك العالم الكامل . وفى كل درجة من تلك الدرجات العالية تنقص الفلسفة وتنقص المسرات بالتدريج حتى يصير الناس فى العالم الكامل كلهم بلهاء »

قال ممنون : « أخشى أن تكون هذه العوالم التى نتدرج فيها إلى الكمال ليست إلا مستشفيات للمجاذيب وإن عالمنا هذا ليس إلا واحدا منها »

فقالت الروح : « إذا لم يكن هذا الوصف منطبقاً فانه ليس بالبعيد »

قال : « ولكن هل الشعراء والفلاسفة مخطئون إذ يقولون إن كل شىء فى هذا الوجود آخذ فى سبيل الارتقاء »

فقالت : « كلا ليسوا مخطئين ولكن لكى نتبين الصدق فيما يقولون يجب أن نراعى صلة كل شىء بمجموعة العالم فانما كمال الأشياء أن يتم اتصالها بالعالم لصالح العالم »

فأجاب ممنون : « لست أستطيع تصديق ذلك إلا إذا رجعت إلىّ عينى »

عبد اللطيف النشار